الساعة؛ كما في «صحيح مسلم» عن عمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال»(١).

ولكن النبي ﷺ قال لأصحابه، بل قال لأمته: «إن يخرج وأنا فيكم؛ فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم؛ فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»(٢).

ومع ذلك؛ فإن نبينا محمداً ﷺ أعلمنا كيف نحاجه، وأعلمنا بأوصافه وميزاته، حتى كأنا نشاهده رأي عين، وبهذه الأوصاف والميزات نستطيع أن نحاجه.

ولهذا نقول: إن فتنة الدجال أعظم فتنة، والرسول عليه الصلاة والسلام قال: «إنكم تفتنون في قبوركم مثل ـ أو قريباً من ـ فتنة الدجال»(٣).

وما أعظمها من فتنة! لأن الإنسان يتلقى فيها السؤال الذي لا يمكن الجواب عليه؛ إلا على أساس متين من العقيدة والعمل الصالح.

***

*** قوله: «فأما الفتنة فإن الناس يفتنون في قبورهم»:**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٦) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (٢٩٣٧) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه (٢/١٠٨).

* هٰذا شروع في بيان كيفية فتنة الميت في قبره.

* وكلمة «**الناس**» عامة، وظاهر كلام المؤلف أن كل أحد؛ حتى الأنبياء والصديقون والشهداء والمرابطون وغير المكلفين من الصغار والمجانين يفتنون في قبورهم، وفي هٰذا تفصيل؛ فنقول:

أولاً: أما الأنبياء؛ فلا تشملهم الفتنة، ولا يسألون، وذٰلك لوجهين:

الأول: أن الأنبياء أفضل من الشهداء، وقد أخبر النبي ﷺ أن الشهيد يوقى فتنة القبر، وقال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»؛ أخرجه النسائي[1].

الثاني: أن الأنبياء يسأل عنهم؛ فيقال للميت: من نبيك؟ فهم مسؤول عنهم، وليسوا مسؤولين، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «إنه أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم»[2]، والخطاب للأمة المرسل إليهم؛ فلا يكون الرسول داخلاً فيهم.

ثانياً: وأما الصديقون؛ فلا يسألون؛ لأن مرتبة الصديقين أعلى من مرتبة الشهداء؛ فإذا كان الشهداء لا يسألون؛ فالصديقون من باب أولى، ولأن الصديق على وصفه مصدَّق وصادق؛ فهو قد علم صدقه؛ فلا حاجة إلى اختباره؛ لأن الاختبار لمن يُشَك فيه؛

---

(١) رواه النسائي (٤/٩٩)، وعنه القاسم السرقسطي في «غريب الحديث» (٢/١٦٥/١) كما في «أحكام الجنائز» (٣٦) للألباني، وقال: سنده صحيح.

(٢) سبق تخريجه (٢/١٠٨).

هل هو صادق أو كاذب، أما إذا كان صادقاً؛ فلا حاجة تدعو لسؤاله، وذهب بعض العلماء إلى أنهم يسألون؛ لعموم الأدلة، والله أعلم.

ثالثاً: وأما الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ فإنهم لا يسألون؛ لظهور صدق إيمانهم بجهادهم:

قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ...﴾ الآية [التوبة: ١١١].

وقال: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال النبي ﷺ: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة»[١].

وإذا كان المرابط؛ إذا مات؛ أمن الفتان؛ لظهور صدقه؛ فهٰذا الذي قتل في المعركة مثله أو أولى منه؛ لأنه بذل وعرض رقبته لعدو الله؛ إعلاءً لكلمة الله، وانتصاراً لدينه، وهٰذا من أكبر الأدلة على صدق إيمانه.

رابعاً: وأما المرابطون؛ فإنهم لا يفتنون؛ ففي «صحيح مسلم»؛ أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات؛ جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري

---

(١) تقدم قريباً.

عليه رزقه، وأمن الفتان»[1].

خامساً: الصغار والمجانين؛ هل يفتنون أو لا يفتنون؟

قال بعض العلماء: إنهم يفتنون؛ لدخولهم في العموم، ولأنهم إذا سقط التكليف عنهم في حال الحياة؛ فإن حال الممات تخالف حال الحياة.

وقال بعض العلماء: إن المجانين والصغار لا يسألون؛ لأنهم غير مكلفين، وإذا كانوا غير مكلفين؛ فإنه لا حساب عليهم؛ إذ لا حساب إلا على من كان مكلفاً يعاقب على المعاصي، وهٰؤلاء لا يعاقبون، وليس لهم إلا الثواب؛ إن عملوا عملاً صالحاً يثابون عليه.

* إذاً؛ خرج من قول المؤلف: «فإن الناس»: خمسة أصناف: الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والمرابطون، ومن لا عقل له؛ كالمجانين والصبيان.

تنبيه:

الناس ثلاثة أقسام: مؤمنون خلص ومنافقون، وهٰذان القسمان يفتنون، والثالث كفار خلص؛ ففي فتنتهم خلاف، وقد رجح ابن القيم في كتاب «الروح» أنهم يفتنون.

* وهل تسأل الأمم السابقة؟

---

(١) رواه مسلم (١٩١٣) عن سلمان رضي الله عنه.

ذهب بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ إلى أنهم يسألون؛ لأنه إذا كانت هٰذه الأمة ـ وهي أشرف الأمم ـ تسأل؛ فمن دونها من باب أولى.

* قوله: «**في قبورهم**»: جمع قبر، وهي مدفن الأموات، والمراد ما هو أعم؛ فيشمل البرزخ، وهو ما بين موت الإنسان وقيام الساعة، سواء دفن الميت أو أكلته السباع في البر أو الحيتان في البحر أو أتلفته الرياح.

والظاهر أن الفتنة لا تكون إلا إذا انتهت الأحوال الدنيوية، وسلم إلى عالم الآخرة؛ فإذا تأخر دفنه يوماً أو أكثر؛ لم يكن السؤال حتى يدفن.

* قوله: «**فيقال للرجل**»: القائل ملكان يأتيان إلى الإنسان في قبره، ويجلسانه، ويسألانه، حتى إنه ليسمع قرع نعال المنصرفين عنه، وهما يسألانه، ولهٰذا كان من هدي النبي ﷺ؛ أنه إذا دفن الميت؛ وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل»(١).

* وورد في بعض الآثار أن اسمهما: منكر، ونكير(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٢١)، والبيهقي (٤/ ٥٦)، وصححه الحاكم (١/ ٣٧٠)، ووافقه الذهبي، وجوَّد إسناده النووي في «المجموع» (٥/ ٢٩٢)، وانظر «أحكام الجنائز» للألباني (١٥٦).

(٢) لما رواه الترمذي (١٠٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٤)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٥)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا =

وأنكر بعض العلماء هٰذين الاسمين؛ قال: كيف يسمى الملائكة وهم الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف الثناء بهٰذين الاسمين المنكرين، وضعف الحديث الوارد في ذٰلك.

وذهب آخرون إلى أن الحديث حجة، وأن هٰذه التسمية ليس لأنهما منكران من حيث ذواتهما، ولٰكنهما منكران من حيث إن الميت لا يعرفهما، وليس له بهما علم سابق، وقد قال إبراهيم لأضيافه الملائكة: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ لأنه لا يعرفهم؛ فهٰذان منكر ونكير؛ لأنهما غير معروفين للميت.

* ثم هٰذان الملكان هل هما ملكان جديدان، موكلان بأصحاب القبور أو هما الملكان الكاتبان اللذان عن اليمين وعن الشمال قعيد؟

– منهم من قال: إنهما الملكان اللذان يصحبان المرء؛ فإن لكل إنسان ملكين في الدنيا يكتبان أعماله، وفي القبر يسألانه هٰذه الأسئلة الثلاثة.

– ومنهم من قال: بل هما ملكان آخران، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، والملائكة خلق كثير؛ قال النبي ﷺ: «أطت السماء، وحق لها أن تئط (والأطيط: صرير الرحل)؛ ما من موضع شبر (أو قال: أربع أصابع)؛ إلا وفيه

= قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر: النكير...». والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩١).

ملك قائم لله أو راكع أو ساجد»[1]، والسماء واسعة الأرجاء؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

فالمهم أنه لا غرابة أن ينشىء الله عز وجل لكل مدفون ملكين يرسلهما إليه، والله على كل شيء قدير.

* قوله: «من ربك؟»؛ يعني: من ربك الذي خلقك وتعبده وتخصه بالعبادة؟ لأجل أن تنتظم هذه الكلمة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

* وقوله: «ما دينك؟»: يعني: ما عملك الذي تدين به لله عز وجل، وتتقرب به إليه؟

* والثالث: «من نبيك؟»؛ يعني: من النبي الذي تؤمن به وتتبعه؟

* قوله: «فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»؛ أي: يجعلهم ثابتين لا يترددون ولا يتلعثمون في الجواب.

* والقول الثابت: هو التوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

---

(١) رواه أحمد (٥/١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢/٥١٠)؛ عن أبي ذر رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

* وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾: يحتمل أنها متعلقة بـ ﴿يُثَبِّتُ﴾؛ يعني: أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة. ويحتمل أنها متعلقة بالثابت؛ فتكون وصفاً للقول؛ يعني: أن هٰذا القول ثابت في الدنيا وفي الآخرة.

ولٰكن المعنى الأول أحسن وأقرب؛ لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ فهم يثبتون في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالقول الثابت.

* قوله: «**فيقول المؤمن: ربي الله، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي**»:

فيقول المؤمن: ربي الله. عندما يقال له: من ربك؟ ويقول إذا قيل له: ما دينك؟ فيقول: الإسلام ديني. ويقول كذٰلك: محمد ﷺ نبيي. إذا قيل له: من نبيك؟

وحينئذ يكون الجواب صواباً، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي؛ فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة.

* قوله: «**وأما المرتاب؛ فيقول: هاه هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**»:

* المرتاب: الشاك والمنافق وشبههما.

* «**فيقول: هاه! هاه! لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً**

فقلته»؛ يعني: لم يلج الإيمان قلبه، وإنما كان يقول كما يقول الناس من غير أن يصل الإيمان إلى قلبه.

وتأمل قوله: «هاه! هاه!»؛ كأن شيئاً غاب عنه؛ يريد أن يتذكره، وهٰذا أشد في التحسر؛ أن يتخيل أنه يعرف هٰذا الجواب، ولٰكن يحال بينه وبينه، ويقول: هاه! هاه! ثم يقول: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته. ولا يقول: ربي الله! ولا: ديني الإسلام! ولا: نبيي محمد! لأنه في الدنيا مرتاب شاك!

هٰذا إذا سئل في قبره وصار أحوج ما يكون إلى الجواب الصواب؛ يعجز ويقول: لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

إذاً؛ إيمانه قول فقط!!

* قوله: «**فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان**»:

* «**يضرب**»؛ يعني: الذي لم يجب؛ سواء كان الكافر أو المنافق والضارب له الملكان اللذان يسألانه.

* والمرزبة: هي مطرقة من حديد، وقد ورد في بعض الروايات أنه لو اجتمع عليها أهل منى؛ ما أقلوها.

فإذا ضرب؛ يصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان.

* قوله: «**يضرب فيصيح**»؛ أي: صياحاً مسموعاً؛ يسمعه كل شيء، يكون حوله مما يسمع صوته، وليس كل شيء في أقطار

الدنيا يسمعه، وأحياناً يتأثر به ما يسمعه؛ كما مر النبي ﷺ بأقبر للمشركين على بغلته؛ فحادت به، حتى كادت تلقيه؛ لأنها سمعت أصواتهم يعذَّبون[1].

* قوله: «**إلا الإنسان**»؛ يعني: أنه لا يسمع هٰذا الصياح، وذٰلك لحكم عظيمة؛ منها:

أولاً: ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»[2].

ثانياً: أن في إخفاء ذٰلك ستراً للميت.

ثالثاً: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح؛ لم يستقر لهم قرار.

رابعاً: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هٰذا ولدكم! هٰذا أبوكم! هٰذا أخوكم! وما أشبه ذٰلك.

خامساً: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشى عليه.

سادساً: لو سمع الناس صراخ هٰؤلاء المعذبين؛ لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٧) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق.

بما شاهدوه قطعاً؛ لٰكن إذا كان غائباً عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر؛ صار من باب الإيمان بالغيب.

* **تنبيه:**

قول المؤلف رحمه الله: «فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعها الإنسان؛ لصعق»؛ إنما ورد قوله: «يسمعها كل شيء إلا الإنسان...» إلخ في قول الجنازة إذا احتملها الرجال على أعناقهم؛ كما قال النبي ﷺ: «فإن كانت صالحة؛ قالت: قدموني! وإن كانت غير صالحة؛ قالت: يا ويلها! أين يذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه؛ لصعق»[1]. أما الصيحة في القبر؛ فقال النبي ﷺ: «فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». أخرجه البخاري بهٰذا اللفظ[2]، والمراد بالثقلين: الإنس والجن.

* * *

* قوله: «**ثم بعد هٰذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب**»:

* «**ثم**»: هٰذه لمطلق الترتيب، وليست للتراخي؛ لأن الإنسان يعذب أو ينعم فوراً؛ كما سبق أنه إذا قال: لا أدري! يضرب بمرزبة، وأن ذاك الذي أجاب بالصواب؛ يفتح له باب إلى الجنة، ويوسع له في قبره.

---

(١) رواه البخاري (١٣١٦ و ١٣٨٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١٣٧٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

* وهٰذا النعيم أو العذاب؛ هل هو على البدن أو على الروح أو يكون على البدن والروح جميعاً؟

نقول: المعروف عند أهل السنة والجماعة أنه في الأصل على الروح، والبدن تابع لها؛ كما أن العذاب في الدنيا على البدن، والروح تابعة له، وكما أن الأحكام الشرعية في الدنيا على الظاهر، وفي الآخرة بالعكس؛ ففي القبر يكون العذاب أو النعيم على الروح، لٰكن الجسم يتأثر بهٰذا تبعاً، وليس على سبيل الاستقلال، وربما يكون العذاب على البدن والروح تتبعه، لٰكن هٰذا لا يقع إلا نادراً؛ إنما الأصل أن العذاب على الروح والبدن تبع، والنعيم للروح والبدن تبع.

* وقوله: «**إما نعيم وإما عذاب**»: فيه إثبات النعيم والعذاب في القبر، وقد دل على ذٰلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بل لنا أن نقول: وإجماع المسلمين:

ـ أما من كتاب الله؛ فالثلاثة أصناف التي في آخر الواقعة ظاهرة في ثبوت عذاب القبر ونعيمه.

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٩٤].

وهٰذا أمر مشاهد؛ يسمع المحتضر يرحب بالقادمين عليه من

الملائكة[1]، ويقول: مرحباً! وأحياناً يقول: مرحباً؛ اجلس هنا! كما ذكره ابن القيم في كتاب «الروح»، وأحياناً يحس بأن هٰذا الرجل أصيب بشيء مخيف، فيتغير وجهه عند الموت إذا نزلت عليه ملائكة العذاب والعياذ بالله.

ومن أدلة القرآن قوله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ﴾، وهٰذا قبل قيام الساعة؛ بدليل قوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ومن أدلة القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، وهم شاحون بأنفسهم، لا يريدونها أن تخرج؛ لأنهم قد بشروا بالعذاب والعقوبة؛ فتجد الروح تأبى الخروج، ولهٰذا قال: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: (الـ): للعهد الحضوري؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]؛ يعني: اليوم الحاضر.

وكذٰلك ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾: (الـ) للعهد الحضوري، والمراد

---

(١) لما رواه البراء بن عازب في قصة خروجه مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار. أخرجه الإمام أحمد (٤/٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٩٥ و ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والآجري في «الشريعة» (٣٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/٣٧)؛ وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، ووافقهما الألباني في «أحكام الجنائز» (١٥٩). وقال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/٣٦٩): هذا الحديث حديث حسن.

به: يوم حضور الملائكة لقبض أرواحهم، وهٰذا يقتضي أنهم يعذبون من حين أن تخرج أرواحهم، وهٰذا هو عذاب القبر.

ومن أدلة القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢]، وذٰلك في حال الوفاة.

ولهٰذا جاء في الحديث الصحيح: «يقال لنفس المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ورضوان»؛[١] فتفرح بهٰذه البشرى، وتخرج منقادة سهلة، وإن كان البدن قد يتألم، لٰكن الروح منقادة مستبشرة.

ـ وأما السنة في عذاب القبر ونعيمه؛ فمتواترة، ومنها ما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ مر بقبرين؛ فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير...»[٢] الحديث.

ـ وأما الإجماع؛ فكل المسلمين يقولون في صلاتهم: أعوذ بالله من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر... ولو أن عذاب القبر غير ثابت؛ ما صح أن يتعوذوا بالله منه؛ إذ لا تعوذ من أمر ليس موجوداً، وهٰذا يدل على أنهم يؤمنون به.

* فإن قال قائل: هل العذاب أو النعيم في القبر دائم أو

---

(١) تقدم تخريجه (٢/ ١٢١) من حديث البراء بن عازب.

(٢) رواه: البخاري (١٣٧٨)، ومسلم (١٩٨٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ينقطع؟

فالجواب أن يقال:

ـ أما العذاب للكفار؛ فإنه دائم، ولا يمكن أن يزول العذاب عنهم؛ لأنهم مستحقون لذٰلك، ولأنه لو زال العذاب عنهم؛ لكان هٰذا راحة لهم، وهم ليسوا أهلاً لذٰلك؛ فهم باستمرار في عذاب إلى يوم القيامة، ولو طالت المدة؛ فقوم نوح الذين أغرقوا ما زالوا يعذبون في هٰذه النار التي أدخلوا فيها، ويستمر عذابهم إلى يوم القيامة، وكذٰلك آل فرعون يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً.

وذكر بعض العلماء أنه يخفف عن الكفار ما بين النفختين، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يَس: ٥٢]، ولٰكن هٰذا ليس بلازم؛ لأن قبورهم مرقد لهم، وإن عذبوا فيها.

ـ أما عصاة المؤمنين الذين يقضي الله تعالى عليهم بالعذاب؛ فهٰؤلاء قد يدوم عذابهم وقد لا يدوم، وقد يطول وقد لا يطول؛ حسب الذنوب، وحسب عفو الله عز وجل.

والعذاب في القبر أهون من عذاب يوم القيامة؛ لأن العذاب في القبر ليس فيه خزي وعار، لٰكن في الآخرة فيه الخزي والعار؛ لأن الأشهاد موجودون: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

* فإن قال قائل: لو أن هٰذا الرجل تمزق أوصالاً، وأكلته السباع، وذرته الرياح؛ فكيف يكون عذابه، وكيف يكون سؤاله؟!

فالجواب: أن الله عز وجل على كل شيء قدير، وهٰذا أمر غيبي؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هٰذه الأشياء في عالم الغيب، وإن كنا نشاهدها في الدنيا متمزقة متباعدة، لٰكن في عالم الغيب ربما يجمعها الله:

فانظر إلى الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان في المكان نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]، ومع ذٰلك؛ لا نبصرهم.

وملك الموت يكلم الروح، ونحن لا نسمع.

وجبريل يتمثل أحياناً للرسول عليه الصلاة والسلام، ويكلمه بالوحي في نفس المكان، والناس لا ينظرون ولا يسمعون.

فعالم الغيب لا يمكن أبداً أن يقاس بعالم الشهادة، وهٰذه من حكمة الله عز وجل؛ فنفسك التي في جوفك ما تدري كيف تتعلق ببدنك؟! كيف هي موزعة على البدن؟! وكيف تخرج منك عند النوم؟! هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع؟! ومن أين تدخل لجسمك؟!

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم، ولا يمكن فيه القياس إطلاقاً؛ فالله عز وجل قادر على أن يجمع هٰذه المتفرقات من البدن المتمزق الذي ذرته الرياح، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو النعيم؛ لأن الله سبحانه على كل شيء قدير.

* فإن قال قائل: الميت يدفن في قبر ضيق؛ فكيف يوسع له

مدَّ البصر؟!

فالجواب: أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة، بل إننا لو فرض أن أحداً حفر حفرة مدَّ البصر، ودفن فيها الميت، وأطبق عليه التراب؛ فالذي لا يعلم بهٰذه الحفرة؛ هل يراها أو لا يراها؟! لا شك أنه لا يراها؛ مع أن هٰذا في عالم الحس، ومع ذٰلك لا يرى هٰذه السعة، ولا يعلم بها؛ إلا من شاهدها.

* فإذا قال قائل: نحن نرى الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين؛ نرى أن أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق؟!

فالجواب كما سبق: أن هٰذا من عالم الغيب، ومن الجائز أن تكون مختلفة؛ فإذا كشف عنها؛ أعادها الله، وردَّ كل شيء إلى مكانه؛ امتحاناً للعباد؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفنَّاه وأضلاعه مستقيمة؛ صار الإيمان بذٰلك إيمان شهادة.

* فإن قال قائل كما قال الفلاسفة: نحن نضع الزئبق على الميت، وهو أسرع الأشياء تحركاً ومروقاً، وإذا جئنا من الغد؛ وجدنا الزئبق على ما هو عليه، وأنتم تقولون: إن الملائكة يأتون ويجلسون هٰذا الرجل، والذي يجلس؛ كيف يبقى عليه الزئبق؟!

فنقول أيضاً كما قلنا سابقاً: هٰذا من عالم الغيب، وعلينا الإيمان والتصديق، ومن الجائز أيضاً أن الله عز وجل يرد هٰذا الزئبق إلى مكانه بعد أن تحول بالجلوس.

ونقول أيضاً: انظروا إلى الرجل في المنام؛ يرى أشياء لو

كان على حسب رؤيته إياها؛ ما بقي في فراشه على السرير، وأحياناً تكون رؤيا حق من الله عز وجل، فتقع كما كان يراها في منامه، ومع ذٰلك؛ نحن نؤمن بهٰذا الشيء.

والإنسان إذا رأى في منامه ما يكره؛ أصبح وهو متكدر، وإذا رأى ما يسره؛ أصبح وهو مستبشر؛ كل هٰذا يدل على أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد، ولا ترد النصوص الصحيحة؛ لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد.

* * *

فصل
في القيامة الكبرى

* قوله: «إلى أنْ تَقومَ القِيامَةُ الكُبْرى»:

الشرح:

* القيامة الكبرى هي التي يقوم فيها الناس من قبورهم لرب العالمين.

* وأفادنا المؤلف رحمه الله بقوله: «القيامة الكبرى»: أن هناك قيامة صغرى، وهي قيامة كل إنسان بعينه؛ فإن كل إنسان له قيامة؛ فمن مات؛ قامت قيامته.

* وسكت المؤلف رحمه الله عن أشراط الساعة؛ فلم يذكرها؛ لأن المؤلف إنما يريد أن يتكلم عن اليوم الآخر، وما أشراط الساعة إلا مجرد علامات وإنذارات لقرب قيام الساعة؛ ليستعد لها من يستعد.

وبعض أهل العلم الذين صنفوا في العقائد ذكروا أشراط

الساعة هنا، والحقيقة أنه لا تعلق لها في الإيمان باليوم الآخر، وإن كانت هي من الأمور الغيبية التي أشار الله إليها في القرآن وفصلها النبي ﷺ في السنة.

* * *

● **الأمر الأول مما يكون في القيامة:**

ما أشار إليه المؤلف بقوله: «**فَتُعادُ الأرْواحُ إلى الأجْسادِ**».

هٰذا أول الأمور:

* ويكون بعد النفخة الثانية في الصور، وذٰلك بعد أن فارقتها بالموت، وهٰذه غير الإعادة التي تكون في البرزخ حين سؤال الميت عن ربه ودينه ونبيه، وذٰلك أن الله يأمر إسرافيل فينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض؛ إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه مرة أخرى فتتطاير الأرواح من الصور إلى أجسادها، وتحل فيها.

* وفي قول المؤلف: «**إلى الأجساد**»: إشارة إلى أن الأرواح لا تخرج من الصور؛ إلا بعد أن تتكامل الأجساد مخلوقة؛ فإذا كملت خلقتها؛ نفخ في الصور، فأعيدت الأرواح إلى أجسادها.

* وفي قوله: «**تعاد الأرواح إلى الأجساد**»: دليل على أن البعث إعادة، وليس تجديداً، بل هو إعادة لما زال وتحول؛ فإن الجسد يتحول إلى تراب، والعظام تكون رميماً؛ يجمع الله تعالى هٰذا المتفرق، حتى يتكون الجسد، فتعاد الأرواح إلى أجسادها،

وأما من زعم بأن الأجساد تخلق من جديد؛ فإن هٰذا زعم باطل يرده الكتاب والسنة والعقل:

ـ أما الكتاب؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أي: يعيد ذٰلك الخلق الذي ابتدأه.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله تعالى: ليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته»[1]؛ فالكل على الله هين.

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يٓس: ٧٨ ـ ٧٩].

ـ وأما السنة؛ فهي كثيرة جدّاً في هٰذا؛ حيث بين النبي ﷺ «أن الناس يحشرون حفاة عراة غُرْلاً»[2]؛ فالناس هم الذين يحشرون، وليس سواهم.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لما رواه البخاري (٣٣٤٩ و ٣٤٤٧)، ومسلم (٢٨٦٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً...».

فالمهم؛ أن البعث إعادة للأجساد السابقة.

* فإذا قلت: ربما يؤكل الإنسان من قبل السباع، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلى تغذية لهٰذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله؛ فما الجواب على ذٰلك؟

فالجواب: أن الأمر هين على الله؛ يقول: كن! فيكون، ويتخلص هٰذا الجسم الذي سيبعث من كل هٰذه الأشياء التي اختلط بها، وقدرة الله عز وجل فوق ما نتصوره؛ فالله على كل شيء قدير.

* * *

* قوله: «**وَتَقومُ القِيامَةُ التي أَخْبَرَ اللهُ بِها في كِتابِهِ وَعَلى لِسانِ رَسولِهِ وَأَجْمَعَ عَلَيْها المُسْلِمونَ**».

هذه ثلاثة أنواع من الأدلة: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع المسلمين.

ـ فأما كتاب الله تعالى؛ فقد أكد الله تعالى في كتابه هذه القيامة، وذكرها الله عز وجل بأوصاف عظيمة، توجب الخوف والاستعداد لها:

فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١ ـ ٢].

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١ ـ ٥].

والأوصاف لها في القرآن كثيرة؛ كلها مروعة مخوفة؛ لأنها عظيمة، وإذا لم نؤمن بها؛ فلن نعمل لها؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل لهٰذا اليوم حتى يؤمن به وحتى يذكر له أوصافه التي توجب العمل لهٰذا اليوم.

ـ وأما السنة؛ فالأحاديث في ذكر القيامة كثيرة، بين الرسول عليه الصلاة والسلام بها ما يكون فيها؛ كما سيأتي إن شاء الله في ذكر الحوض والصراط والكتاب وغير ذٰلك مما بينه الرسول ﷺ.

ـ وأما الإجماع ـ وهو النوع الثالث ـ؛ فقد أجمع المسلمون إجماعاً قطعيّاً على الإيمان بيوم القيامة، ولهٰذا كان من أنكره؛ فهو كافر؛ إلا إذا كان غريباً عن الإسلام وجاهلاً؛ فإنه يعرَّف؛ فإن أصر على الإنكار بعد ذٰلك؛ فهو كافر.

ـ وهناك نوع رابع من الأدلة، وهو الكتب السماوية؛ حيث اتفقت على إثبات اليوم الآخر، ولهٰذا كان اليهود والنصارى يؤمنون بذٰلك، وحتى الآن يؤمنون به، ولهٰذا تسمعونهم يقولون: فلان المرحوم، أو: رحمه الله، أو: ما أشبه ذٰلك؛ مما يدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر إلى يومنا هٰذا.

ـ وثَمَّ نوع خامس، وهو العقل، ووجه ذٰلك أنه لو لم يكن هٰذا اليوم؛ لكان إيجاد الخلائق عبثاً، والله عز وجل منزه عن العبث؛ فما الحكمة من قوم يُخلقون ويُؤمرون ويُنهون ويُلزَمون بما يُلزَمون به ويُندَبون إلى ما يُندَبون إليه، ثم يموتون، ولا حساب، ولا عقاب؟!

ولهٰذا قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

كيف يُفرض القرآن ويُفرض العمل به؛ ثم لا يكون هناك معاد؛ نحاسب على ما نفذنا من هٰذا القرآن الذي فرض علينا؟!

فصارت أنواع الأدلة على ثبوت اليوم الآخر خمسة.

* * *

● **الأمر الثاني مما يكون في القيامة:**

ما أشار إليه بقوله: «**فَيَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لِرَبِّ العالَمينَ حُفاةً عُراةً غُرْلاً**».

* قوله: «**من قبورهم**»: هٰذا بناء على الأغلب، وإلا؛ فقد يكون الإنسان غير مدفون.

* قوله: «**لرب العالمين**»؛ يعني: لأن الله عز وجل يناديهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢]؛ فيقومون لهٰذا النداء العظيم من قبورهم لربهم عز وجل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

* قوله: «**حُفاةً عُراةً غُرْلاً**»: «**حفاة**»: ليس عليهم نعال ولا خفاف؛ يعني: أنه ليس عليهم لباس للرجل.

* «**عراة**»: ليس عليهم لباس للجسد.

* «**غرلاً**»: لم ينقص من خلقهم شيء، والغرل: جمع أغرل، وهو الذي لم يختن؛ أي أن القلفة التي قطعت منه في الدنيا تعود يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ فيعاد كاملاً، لم ينقص منه شيء؛ يعودون على هٰذا الوصف مختلطين رجالاً ونساء.

ولما حدث النبي عليه الصلاة والسلام بذٰلك؛ قالت عائشة: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: «الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذٰلك» (وفي رواية: من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[١].

فكل إنسان له شأن يغنيه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٧)، والرواية الأخرى عند مسلم (٢٨٥٩)، عن عائشة رضي الله عنها.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧]. لا رجل ينظر إلى امرأة، ولا امرأة تنظر إلى رجل، حتى إن ابنه أو أباه يفر منه؛ خوفاً من أن يطالبه بحقوق له، وإذا كان هذا هو الواقع؛ فإنه لا يمكن أن تنظر المرأة إلى الرجل، ولا الرجل إلى المرأة؛ الأمر أشد وأعظم.

ولكن؛ مع ذٰلك؛ يكسون بعد هٰذا، وأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ كما ثبت ذٰلك عن النبي ﷺ[١].

* * *

● **الأمر الثالث مما يكون يوم القيامة:**

ما أشار إليه بقوله: «**وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ**».

* «**تدنو**»: أي: تقرب منهم الشمس، وتقرب منهم مقدار ميل.

وهٰذا الميل سواء كان المسافة أو ميل المكحلة؛ فإنها قريبة، وإذا كانت هٰذه حرارتها في الدنيا، وبيننا وبينها من البعد شيء عظيم؛ فكيف إذا كانت عن الرؤوس بمقدار ميل[٢]؟!

---

(١) رواه: البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)؛ عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) كما جاء في صحيح مسلم (٢٨٦٤)، من حديث المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق =

* قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها؛ لأحرقت الأرض؛ فكيف يمكن أن تكون في ذٰلك اليوم بهٰذا المقدار من البعد، ثم لا تحرق الخلق؟

فالجواب على ذٰلك: أن الناس يحشرون يوم القيامة؛ ليسوا على القوة التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحملاً.

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يوماً في شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب؛ فلا يمكنهم ذٰلك، بل يموتون! لٰكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة؛ لا أكل ولا شرب ولا ظل؛ إلا من أظله الله عز وجل، ومع ذٰلك؛ يشاهدون أهوالاً عظيمة؛ فيتحملون.

واعتبر بأهل النار؛ كيف يتحملون هٰذا التحمل العظيم؛ ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وبأهل الجنة؛ ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه؛ كما ينظر إلى أدناه؛ كما روي ذٰلك عن النبي ﷺ(١).

* فإن قيل: هل أحد يسلم من الشمس؟

فالجواب: نعم! هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ كما أخبر بذٰلك النبي ﷺ: «إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله

= إلجاماً»، قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه».

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣)، والحاكم (٢/ ٥٠٩)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٩٨٥).

اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً؛ ففاضت عيناه»[1].

وهناك أيضاً أصناف أخرى يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

* وقوله: «لا ظل إلا ظله»؛ يعني: إلا الظل الذي يخلقه، وليس كما توهم بعض الناس أنه ظل ذات الرب عز وجل؛ فإن هٰذا باطل؛ لأنه يستلزم أن تكون الشمس حينئذ فوق الله عز وجل.

ففي الدنيا؛ نحن نبني الظل لنا، لٰكن يوم القيامة؛ لا ظل إلا الظل الذي يخلقه سبحانه وتعالى ليستظل به من شاء من عباده.

● **الأمر الرابع مما يكون يوم القيامة:**

ما ذكره المؤلف رحمه الله بقوله: «**وَيُلْجِمْهُمُ العَرَقُ**».

* «**يلجمهم**»؛ أي: يصل منهم إلى موضع اللجام من الفرس، وهو الفم.

* ولٰكن هٰذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا؛ فبعضهم يصل العرق إلى كعبيه، وإلى ركبتيه، وإلى حقويه، ومنهم من يلجمه؛ فهم يختلفون في هٰذا العرق، ويعرقون من شدة الحر؛ لأن المقام

---

(١) رواه: البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيعرق الإنسان مما يحصل في ذٰلك اليوم؛ لٰكنهم على حسب أعمالهم[1].

* فإن قلت: كيف يكون ذٰلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول: كيف؟! ولِمَ؟! لأنها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها.

أرأيت لو أن رجلين دُفِنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني: كافر؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهٰكذا نقول في العرق يوم القيامة.

* فإن قلت: هل تقول: إن الله سبحانه وتعالى يجمع من يلجمهم العرق في مكان، ومن يصل إلى كعبيه في مكان، وإلى ركبتيه في مكان، وإلى حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نجزم بهٰذا، والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصل العرق إلى كعبه إلى جانب الذي يلجمه العرق، والله على كل شيء قدير، وهٰذا نظير النور الذي يكون للمؤمنين؛ يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة؛ فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه، أما كيف؟! ولِمَ؟!

---

(١) انظر: (٢/ ١٣٤).

فهٰذا ليس إلينا.

* * *

● **الأمر الخامس مما يكون يوم القيامة:**

ما ذكره بقوله: «**فتُنْصَبُ المَوازينُ فَتُوزَنُ بِها أعْمالُ العِبادِ**».

* الذي ينصب الموازين هو الله عز وجل؛ لتوزن بها أعمال العباد.

* والمؤلف يقول: «الموازين»: بالجمع، وقد وردت النصوص بالجمع والإفراد:

ـ فمثال الجمع: قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩].

ـ وأما الإفراد؛ فقال النبي ﷺ: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(١).

فقال: «في الميزان»؛ فأفرد؛

فكيف نجمع بين الآيات القرآنية وبين هٰذا الحديث؟!

فالجواب أن نقول:

---

(١) رواه: البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إنها جمعت باعتبار الموزون؛ حيث إنه متعدد، وأفردت باعتبار أن الميزان واحد، أو ميزان كل أمة.

أو أن المراد بالميزان في قوله عليه الصلاة والسلام: «ثقيلتان في الميزان»؛ أي: في الوزن.

ولٰكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الميزان واحد، وأنه جمع باعتبار الموزون؛ بدليل قوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨].

لكن يتوقف الإنسان: هل يكون ميزاناً واحداً لجميع الأمم أو لكل أمة ميزان؛ لأن الأمم كما دلت عليه النصوص تختلف باعتبار أجرها؟!

* وقوله: «**تنصب الموازين**»: ظاهره أنها موازين حسية، وأن الوزن يكون على حسب المعهود بالراجح والمرجوح، وذٰلك لأن الأصل في الكلمات الواردة في الكتاب والسنة حملها على المعهود المعروف؛ إلا إذا قام دليل على أنها خلاف ذلك، والمعهود المعروف عند المخاطبين منذ نزول القرآن الكريم إلى اليوم أن الميزان حسي، وأن هناك راجحاً ومرجوحاً.

وخالف في ذٰلك جماعة:

ـ فالمعتزلة قالوا: إنه ليس هناك ميزان حسي، ولا حاجة له؛ لأن الله تعالى قد علم أعمال العباد وأحصاها، ولٰكن المراد بالميزان: الميزان المعنوي الذي هو العدل.